مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم

شيخ الإسلام ابن تيمية

وسئل شيخ الإسلام قدس الله روحه عن رجلين تجادلا في " الأحرف التي أنزلها الله على آدم " فقال أحدهما إنها قديمة ليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث . فقال الآخر ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها والقديم هو الله وكلامه منه بدأ وإليه يعود منزل غير مخلوق ولكنه كتب بها . وسألا أيهما أصوب قولا وأصح اعتقادا ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أصل هذه المسألة هو **معرفة " كلام الله تعالى "** . ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس ذلك مخلوقا منفصلا عنه وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته فكلامه قائم بذاته ليس مخلوقا بائنا عنه وهو يتكلم بمشيئته وقدرته لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ولا قال أحد منهم إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبدا وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية بل قالوا لم يزل الله متكلما إذا شاء فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء . وكلمات الله لا نهاية لها كما قال تعالى : { قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا } والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية . فالقرآن العربي كلام الله كما قال تعالى : { فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم } إلى قوله : { لسان عربي مبين } فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل - وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر - من الله بالحق وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال : { إنما يعلمه بشر } كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي فقال تعالى : { لسان الذي يلحدون إليه أعجمي } أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي { وهذا لسان عربي مبين } . ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال في الآية الأخرى : { أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين } والكتاب الذي أنزل مفصلا هو القرآن العربي باتفاق الناس وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق والعلم لا يكون إلا حقا فقال : يعلمون ولم يقل يقولون فإن العلم لا يكون إلا حقا بخلاف القول . وذكر علمهم ذكر مستشهد به . وقد فرق

سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح } إلى قوله : { حجة بعد الرسل } فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره ووكد تكليمه لموسى بالمصدر وقال تعالى : { تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض } إلى قوله : { روح القدس } وقال تعالى : { وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا } إلى آخر السورة . فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة : إما وحيا وإما من وراء حجاب وإما أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ؛ فجعل الوحي غير التكليم والتكليم من وراء حجاب كان لموسى . وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال : { وناديناه من جانب الطور } الآية . وقال : { فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن } الآية . و " النداء " باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتا مسموعا فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم . وأهل الكتاب يقولون : إن موسى ناداه ربه نداء سمعه بأذنه وناداه بصوت سمعه موسى والصوت لا يكون إلا كلاما والكلام لا يكون إلا حروفا منظومة وقد قال تعالى : { تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم } وقال : { حم } { تنزيل من الرحمن الرحيم } وقال : { حم } { تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم } فقد بين في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزل من الله . وهذا معنى قول السلف : منه بدأ قال أحمد بن حنبل رحمه الله منه بدأ أي هو المتكلم به فإن الذين قالوا إنه مخلوق قالوا خلقه في غيره فبدا من ذلك المخلوق فقال السلف : منه بدأ أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاما لذلك المحل الذي خلقه فيه فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين فإذا خلق طعما أو لونا في محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علما أو كلاما في محل كان ذلك المحل هو المريد القادر العالم المتكلم بذلك الكلام ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات فهو الحي العليم القدير السميع البصير الرحيم المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني . ومن جعل كلامه مخلوقا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى : { إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري } وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاما إلا لرب العالمين وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقا ؛ بل كان ذلك كلاما لرب العالمين . وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل : إن فلانا يقول لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أؤمر فقال : هذا كفر . فأنكر على من قال إن الحروف مخلوقة ؛ لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقا لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقا وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة مخالف للأدلة العقلية والسمعية كما قد بسط في غير هذا الموضع . والناس قد تنازعوا في كلام الله نزاعا كثيرا . والطوائف الكبار نحو ست فرق فأبعدها عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصابئة إن كلام الله إنما هو ما يفيض على النفوس : إما من العقل الفعال وإما من غيره وهؤلاء يقولون : إنما كلم الله موسى من سماء عقله أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج . وأصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزلية

وأن الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته في ستة أيام كما أخبرت به الأنبياء بل يقولون : إن الله لا يعلم الجزئيات فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سلفهم الملاحدة فقالوا مثل ذلك . وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى وهم كثيرو التناقض كقولهم إن الصفة هي الموصوف وهذه الصفة هي الأخرى فيقولون : هو عقل وعاقل ومعقول ولذيذ وملتذ ولذة وعاشق ومعشوق وعشق . وقد يعبرون عن ذلك بأنه حي عالم معلوم محب محبوب ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة وهو نفس القدرة . ونفس العلم هو نفس العالم ونفس المحبة هي نفس المحبوب . ويقولون إنه علة تامة في الأزل ؛ فيجب أن يقارنها معلولها في الأزل في الزمن وإن كان متقدما عليها بالعلة لا بالزمان . ويقولون إن العلة التامة ومعلولها يقترنان في الزمان ويتلازمان فلا يوجد معلول إلا بعلة تامة ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها في الزمان . ثم يعترفون بأن حوادث العالم حدثت شيئا بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة ؛ بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم . وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح والحوادث لها ابتداء وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث . ولم يهتد الفريقان للقول الوسط وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخيا عنه كما قال تعالى : { إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون } فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه في الزمان ولا متراخيا عن تكوينه كما يكون الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع ووقوع الطلاق عقب التطليق لا متراخيا عنه ولا مقارنا له في الزمان . والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى فلزمهم أن الرب لا يمكنه فعل ذلك فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلما بمشيئته ويمتنع أن يكون لم يزل قادرا على الفعل والكلام بمشيئته . فافترقوا بعد ذلك منهم من قال : كلامه لا يكون إلا حادثا ؛ لأن الكلام لا يكون إلا مقدورا مرادا وما كان كذلك لا يكون إلا حادثا وما كان حادثا كان مخلوقا منفصلا عنه ؛ لامتناع قيام الحوادث به وتسلسلها في ظنهم . ومنهم من قال : بل كلامه لا يكون إلا قائما به وما كان قائما به لم يكن متعلقا بمشيئته وإرادته بل لا يكون إلا قديم العين ؛ لأنه لو كان مقدورا مرادا لكان حادثا فكانت الحوادث تقوم به ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها . ومنهم من قال : بل هو متكلم بمشيئته وقدرته لكنه يمتنع أن يكون متكلما في الأزل أو أنه لم يزل متكلما بمشيئته وقدرته ؛ لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها وذلك ممتنع . قالت " هذه الطوائف " : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم ؛ فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلوا من الحوادث ولا تسبقها وما لم يسبق الحوادث فهو حادث . ثم من هؤلاء من ظن أن هذه قضية ضرورية ولم يتفطن لإجمالها . ومنهم من تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة . شيئا بعد شيء . أما الأول فهو حادث بالضرورة ؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث . وأما جنس

الحوادث شيئا بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس فقيل إن ذلك ممتنع في الماضي والمستقبل كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم : بفناء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل : بفناء حركات أهلهما وقيل : بل هو جائز في المستقبل دون الماضي ؛ لأن الماضي دخل في الوجود دون المستقبل . وهو قول كثير من طوائف النظار . وقيل : بل هو جائز في الماضي والمستقبل . وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما ممن يقول بأن **الله لم يزل متكلما إذا شاء وأن كلمات الله لا نهاية لها** وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته . وهو أيضا قول أئمة الفلاسفة . لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفلك ويقولون إنه قديم أزلي . وخالفوا في ذلك جمهور الفلاسفة مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء . فإنهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض ؛ بل هو خالق كل شيء وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وإن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ؛ بل من قال عبدت الله ودعوت الله فإنما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التي تستحقها ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها . ثم لما تكلم في " النبوات " من اتبع أرسطو - كابن سينا وأمثاله - ورأوا ما جاءت به الأنبياء من إخبارهم بأن الله يتكلم وأنه كلم موسى تكليما وأنه خالق كل شيء أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه فيقولون : الحدوث نوعان ذاتي وزماني ونحن نقول إن الفلك محدث الحدوث الزماني ؛ بمعنى أنه معلول وإن كان أزليا لم يزل مع الله وقالوا إنه مخلوق بهذا الاعتبار والكتب الإلهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام والقديم الأزلي لا يكون في أيام . وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء وأنه خلق كذا إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق وأحدثه بعد أن لم يكن كما قال : { وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا } والعقول الصريحة توافق ذلك وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارنا للفاعل في الزمان ولا يكون إلا بعده وأن الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول . وقالوا لهؤلاء قولكم : " إنه مؤثر تام في الأزل " لفظ مجمل يراد به التأثير العام في كل شيء ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء ويراد به التأثير في شيء معين دون غيره ؛ فإن أردتم " الأول " لزم أن لا يحدث في العالم حادث وهذا خلاف المشاهدة وإن أردتم " الثاني " لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقا حادثا كائنا بعد أن لم يكن وكان الرب لم يزل متكلما بمشيئته فعالا لما يشاء وهذا يناقض قولكم ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق ويوافق ما أخبرت به الرسل وعلى هذا يدل العقل الصريح . فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الأنبياء وإن أردتم " الثالث " فسد قولكم ؛ لأنه يستلزم أنه يشاء [حدوثها] بعد أن لم يكن فاعلا لها من غير تجدد سبب يوجب الإحداث وهذا يناقض قولكم . فإن صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثا لشيء وإن لم يصح هذا بطل فقولكم باطل على التقديرين . وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره ولا يكون الأثر إلا مع المؤثر التام في الزمن ؛ وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شيء ويلزمكم أن كل ما حدث حدث بدون مؤثر ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر وليس لكم أن تقولوا بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه . وأيضا فكونه فاعلا لمفعول معين مقارن له أزلا وأبدا باطل في صريح العقل وأيضا فأنتم

وسائر العقلاء موافقون على أن الممكن الذي لا يكون [إلا] ممكنا يقبل الوجود والعدم وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضروري الواجب والضروري الممتنع لا يكون إلا موجودا تارة ومعدوما أخرى وأن القديم الأزلي لا يكون إلا ضروريا واجبا يمتنع عدمه . وهذا مما اتفق عليه أرسطو وأتباعه حتى ابن سينا وذكره في كتبه المشهورة " كالشفا " وغيره . ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديما أزليا لم يزل ولا يزال وزعم أن الواجب بغيره القديم الأزلي الذي يمتنع عدمه يكون ممكنا يقبل الوجود والعدم وزعم أن له ماهية غير وجوده . وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه في غير هذا الموضع . و " القول الثاني " للناس في كلام الله تعالى قول من يقول : إن الله لم يقم به صفة من الصفات لا حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام ولا إرادة ولا رحمة ولا غضب ولا غير ذلك بل خلق كلاما في غيره فذلك المخلوق هو كلامه وهذا قول الجهمية والمعتزلة . وهذا القول أيضا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم ؛ وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم ؛ بل لهم شبه عقلية فاسدة قد بينا فسادها في غير هذا الموضع . وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج وهم لا للإسلام نصروا ولا لأعدائه كسروا . و " القول الثالث " قول من يقول : إنه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وأبدا وهؤلاء موافقون لمن قبلهم في أصل قولهم لكن قالوا الرب تقوم به الصفات ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية . وأول من اشتهر عنه أنه قال هذا القول في الإسلام " عبد الله بن سعيد بن كلاب " ثم افترق موافقوه فمنهم من قال : ذلك الكلام . معنى واحد هو الأمر بكل مأمور والنهي عن كل محظور والخبر عن كل مخبر عنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة . وقالوا معنى القرآن والتوراة والإنجيل واحد ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالوا : الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواع له . ومن محققيهم من جعل المعنى يعود إلى الخبر والخبر يعود إلى العلم . وجمهور العقلاء يقولون : قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة . وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس إلا خلق إدراك يفهم به موسى ذلك المعنى . فقيل لهم : أفهم كل الكلام أم بعضه ؟ إن كان فهمه كله فقد علم علم الله وإن كان فهم بعضه فقد تبعض وعندهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد . وقيل لهم : قد فرق الله بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره . وعلى أصلكم لا فرق . وقيل لهم : قد كفر الله من جعل القرآن العربي قول البشر وقد جعله تارة قول رسول من البشر وتارة قول رسول من الملائكة فقال في موضع : { إنه لقول رسول كريم } { وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون } { ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون } فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقال في الآية الأخرى : { إنه لقول رسول كريم } { ذي قوة عند ذي العرش مكين } { مطاع ثم أمين } فهذا جبريل فأضافه تارة إلى الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري . والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس . وكان بعض هؤلاء ادعى أن القرآن العربي أحدثه جبريل أو محمد فقيل لهم : لو أحدثه أحدهما لم يجز إضافته إلى الآخر . وهو سبحانه أضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي فدل ذلك على أنه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك أو نبي أحدثه من تلقاء نفسه بل قد كفر من قال إنه قول البشر . والطائفة الأخرى التي وافقت ابن كلاب على أن

الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته قالت : بل الكلام القديم هو حروف أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبدا لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته ولا يتكلم بها شيئا بعد شيء . ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام وبين عين حروف قديمة أزلية وهذا أيضا مما يقول جمهور العقلاء إنه معلوم الفساد بالضرورة ؛ فإن الحروف المتعاقبة شيئا بعد شيء يمتنع أن يكون كل منها قديما أزليا وإن كان جنسها قديما ؛ لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها وحروف متعاقبة لا نهاية لها وامتناع كون كل منها قديما أزليا فإن المسبوق بغيره لا يكون أزليا . وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب في ماهيتها لا في وجودها وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره فإن ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئا بعد شيء والصوت لا يكون إلا شيئا بعد شيء فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزليا متقدما عليها به مع أن الفرق بينهما بينه لو قدر الفرق بينهما . ويلزم من هذين الوجهين أن يكون وجودها أيضا مترتبا ترتيبا متعاقبا . ثم من هؤلاء من يزعم أن ذلك القديم هو ما يسمع من العباد من الأصوات بالقرآن والتوراة والإنجيل أو بعض ذلك وكان أظهر فسادا مما قبله فإنه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد . و " طائفة خامسة " قالت : بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره ؛ لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته في الأزل لامتناع حوادث لا أول لها وهؤلاء جعلوا الرب في الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته ولا على الفعل كما فعله أولئك ثم جعلوا الفعل والكلام ممكنا مقدورا من غير تجدد شيء أوجب القدرة والإمكان كما قال أولئك في المفعولات المنفصلة . وأما السلف فقالوا : لم يزل الله متكلما إذا شاء وأن الكلام صفة كمال ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له ولا يكون الموصوف متكلما عالما قادرا إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة . وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفا بها لو كان حدوثها ممكنا فكيف إذا كان ممتنعا ؟ فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال ؛ ومن أجلها الكلام . فلم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لأن الله تكلم بها .

فصل ثم تنازع بعض المتأخرين في **الحروف الموجودة في كلام الآدميين** . وسبب نزاعهم أمران : " أحدهما " أنهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيسمع منه وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلغ فإن القرآن كلام الله تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ؛ فإذا قرأه القراء قرءوه بأصوات أنفسهم . فإذا قال القارئ : { الحمد لله رب العالمين } { الرحمن الرحيم } كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم { زينوا القرآن بأصواتكم } وكان يقول : { ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي } وكلا الحديثين ثابت فبين أن الكلام

الذي يبلغه كلام ربه وبين أن القارئ يقرؤه بصوت نفسه وقال صلى الله عليه وسلم { ليس منا من لم يتغن بالقرآن } قال أحمد والشافعي وغيرهما : هو تحسينه بالصوت . قال أحمد بن حنبل : يحسنه بصوته فبين أحمد أن القارئ يحسن القرآن بصوت نفسه . و " السبب الثاني " أن السلف قالوا : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء . فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم ولا قال أحد منهم القرآن قديم ؛ بل قالوا : إنه كلام الله منزل غير مخلوق وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه وكان منزلا منه غير مخلوق ولم يكن مع ذلك أزليا قديما بقدم الله وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض . فمن **قال إن حروف المعجم كلها مخلوقة وإن كلام الله تعالى [مخلوق** فقد قال قولا [مخالفا للمعقول الصريح والمنقول الصحيح ومن قال نفس أصوات العباد أو مدادهم أو شيئا من ذلك قديم فقد خالف أيضا أقوال السلف وكان فساد قوله ظاهرا لكل أحد وكان مبتدعا قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك . ومن قال إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين فقد ابتدع قولا باطلا في الشرع والعقل . ومن **قال : إن جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة وإن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقا** والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب . وإذا قال إن الله هدى عباده وعلمهم البيان فأنطقهم بها باللغات المختلفة وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التي هي مباني كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب فالإنسان وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد أن لم يكن والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق والعباد إذا قرءوا كلامه فإن كلامه الذي يقرءونه هو كلامه لا كلام غيره وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقا وكان ما يقرءون به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقا وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوبا في المصاحف وكلامه غير مخلوق والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق . وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى : { قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا } وكلمات الله غير مخلوقة والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق والقرآن المكتوب في المصاحف غير مخلوق وكذلك المكتوب في اللوح المحفوظ وغيره قال تعالى : { بل هو قرآن مجيد } { في لوح محفوظ } وقال : { كلا إنها تذكرة } { فمن شاء ذكره } { في صحف مكرمة } { مرفوعة مطهرة } وقال تعالى : { يتلو صحفا مطهرة } { فيها كتب قيمة } وقال : { إنه لقرآن كريم } { في كتاب مكنون } { لا يمسه إلا المطهرون } .

فصل فهذان المتنازعان اللذان **تنازعا في " الأحرف التي أنزلها الله على آدم** " فقال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر : إنها ليست بكلام الله وإنها مخلوقة بشكلها ونقطها وإن القديم هو الله وكلامه منه بدأ وإليه يعود منزل غير مخلوق ولكنه كتب

بها . وسؤالهما أن نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقادا يقال لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان ما في السؤال من الكلام المجمل فإن كثيرا من نزاع العقلاء لكونهم لا يتصورون مورد النزاع تصورا بينا وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه في قول آخر غير القولين الذين قالاهما وكثير من النزاع قد يكون مبنيا على أصل ضعيف إذا بين فساده ارتفع النزاع . فأول ما في هذا السؤال قولهما : الأحرف التي أنزلها الله على آدم فإنه قد ذكر بعضهم أن الله أنزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة وهذا ذكره ابن قتيبة في المعارف وهو ومثله يوجد في التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه وهذا ونحوه منقول عمن ينقل الأحاديث الإسرائيلية ونحوها من أحاديث الأنبياء المتقدمين مثل وهب بن منبه وكعب الأحبار ومالك بن دينار ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين لا يجوز أن يجعل عمدة في دين المسلمين إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر أو أن يكون منقولا عن خاتم المرسلين وأيضا فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو : " { إن أول من خط وخاط إدريس } " . فهذا منقول عن بعض السلف وهو مثل ذلك وأقوى فقد ذكروا فيه أن إدريس أول من خاط الثياب وخط بالقلم : وعلى هذا فبنو آدم من قبل إدريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرءون كتبا . والذي في حديث أبي ذر المعروف عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم " { إن آدم كان نبيا مكلما كلمه الله قبلا } " وليس فيه أنه أنزل عليه شيئا مكتوبا فليس فيه أن الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتابا ولا هذا معروف عند أهل الكتاب فهذا يدل على أن هذا لا أصل له ولو كان هذا معروفا عند أهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو من جنس الأحاديث الإسرائيلية التي لا يجب الإيمان بها ؛ بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح " { إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ؛ فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه } " . والله سبحانه علم آدم الأسماء كلها وأنطقه بالكلام المنظوم . وأما تعليم حروف مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع ولكن لما أرادوا تعليم المبتدئ بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء ثم يعلمونه تركيب بعضها إلى بعض فيعلم أبجد هوز وليس هذا وحده كلاما . فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل ولم يدل عليه عقل ؛ بل الأظهر في كليهما نفيه وهو من جنس ما يروونه عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير ا ب ت ث وتفسير أبجد هوز حطي ويروونه عن المسيح أنه قاله لمعلمه في الكتاب وهذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة . ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين في هذا الباب كالشريف المزيدي والشيخ أبي الفرج وابنه عبد الوهاب وغيرهم . وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه في شيء من الدين . وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين وعن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيدي الحراني وغيره فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وقد بين في تفسيره أن كل ما نقل في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو باطل . فذكر في آخر تفسيره اختلاف الناس في تفسير أبجد هوز حطي وذكر حديثا رواه من طريق محمد بن زياد

الجزري عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم { تعلموا أباجاد وتفسيرها ويل لعالم جهل تفسير أبي جاد قال : قالوا يا رسول الله وما تفسيرها ؟ قال ؟ أما الألف فآلاء الله وحرف من أسمائه . وأما الباء فبهاء الله وأما الجيم فجلال الله وأما الدال فدين الله وأما الهاء فالهاوية وأما الواو فويل لمن سها وأما الزاي فالزاوية وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالأسحار } " وذكر تمام الحديث من هذا الجنس . وذكر حديثا ثانيا من حديث عبد الرحيم بن واقد حدثني الفرات بن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : " ليس شيء إلا وله سبب وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك أن لأبي جاد حديثا عجيبا أما " أبو جاد " فأبى آدم الطاعة وجد في أكل الشجرة وأما " هوز " فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض وأما " حطي " فحطت عنه خطيئته وأما " كلمن " فأكله من الشجرة ومن عليه بالتوبة " وساق تمام الحديث من هذا الجنس . وذكر حديثا ثالثا من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " { إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم : اكتب بسم الله فقال له عيسى وما بسم الله ؟ فقال له المعلم وما أدري . فقال له عيسى الباء بهاء الله والسين سناؤه والميم ملكه والله إله الآلهة والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة . أبو جاد : ألف آلاء الله وباء بهاء الله وجيم جمال الله ودال الله الدائم وهوز هاء الهاوية } " وذكر حديثا من هذا الجنس وذكره عن الربيع بن أنس موقوفا عليه . وروى أبو الفرج المقدسي عن الشريف المزيدي حديثا عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير : ا ب ت ث من هذا الجنس . ثم قال ابن جرير : ولو كانت الأخبار التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك صحاح الأسانيد لم يعدل عن القول بها إلى غيرها ولكنها واهية الأسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها ؛ وذلك أن محمد بن زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله وأن عبد الرحيم بن واقد الذي خالفه في رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل وأن إسماعيل بن يحيى الذي حدث عن ابن أبي مليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند أهل النقل الاحتجاج بأخباره . قلت : إسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي كوفي معروف بالكذب ورواية إسماعيل بن عياش في غير الشاميين لا يحتج بها بل هو ضعيف فيما ينقله من أهل الحجاز وأهل العراق بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين ؛ فإنه حافظ لحديث أهل بلده كثير الغلط في حديث أولئك وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال وعبد الرحمن بن واقد لا يحتج به باتفاق أهل العلم وفرات بن السائب ضعيف أيضا لا يحتج به فهو فرات بن أبي الفرات ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضا . وقد **تنازع الناس في أبجد هوز حطي** فقال طائفة هي أسماء قوم قيل أسماء ملوك مدين أو أسماء قوم كانوا ملوكا جبابرة . وقيل : هي أسماء الستة الأيام التي خلق الله فيها الدنيا . والأول اختيار الطبري . وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد مثل أبي عاد وهواز مثل رواد وجواب . وأنها لم تعرب لعدم العقد والتركيب . والصواب : أن هذه ليست أسماء لمسميات وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم ولفظها : أبجد هوز حطي ليس لفظها أبو جاد هواز . ثم كثير من أهل

الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد فيجعلون الألف واحدا والباء اثنين والجيم ثلاثة إلى الياء ثم يقولون الكاف عشرون . . . وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون : كل ألف ب وكل ب ج فكل ألف ج .
ومثلوا بهذه لكونها ألفاظا تدل على صورة الشكل والقياس لا يختص بمادة دون مادة . كما جعل أهل التصريف لفظ " فعل " تقابل الحروف الأصلية والزائدة ينطقون بها . ويقولون : وزن استخرج " استفعل " وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلفة من ذلك ؛ لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل والزائد : ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن نكتل فقال نفعل وضحك منه أهل التصريف . ووزنه عندهم نفتل فإن أصله نكتال وأصل نكتال : نكتيل . تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ثم لما جزم الفعل سقطت كما نقول مثل ذلك في نعتد ونفتد من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده . ونحو ذلك في نقتيل فلما حذفوا الألف التي تسمى لام الكلمة صار وزنها . وجعلت " ثمانية " تكون متحركة : وهي الهمزة وتكون ساكنة وهي حرفان على الاصطلاح الأول وحرف واحد على الثاني والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة ولهذا ذكرت في آخر حروف المعجم ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء فجعلوا اللام قبلها فقالوا : "لا " والتي في الأول هي الهمزة المتحركة فإن الهمزة في أولها . وبعض الناس ينطق بها " لام ألف " والصواب أن ينطق بها "لا " وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا : أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق . وأما النقول الضعيفة لا سيما المكذوبة فلا يعتمد عليها . وكذلك النظريات الفاسدة والعقليات الجهلية الباطلة لا يحتج بها . (الثاني أن يقال : هذه الحروف الموجودة في القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء حروف مثل قوله : { الم } وقوله { المص } وقوله { الم } - { طس } - { حم } - { كهيعص } - { حم } - { عسق } - { ن } - { ق } فهذا كله كلام الله غير مخلوق . (الثالث أن هذه الحروف إذا وجدت في كلام العباد وكذلك الأسماء الموجودة في القرآن إذا وجدت في كلام العباد مثل آدم ونوح ومحمد وإبراهيم وغير ذلك فيقال : هذه الأسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها ؛ لكن لم يتكلم بها مفردة . فإن الاسم وحده ليس بكلام ؛ ولكن تكلم بها في كلامه الذي أنزله في مثل قوله { محمد رسول الله } وقوله : { وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا } إلى قوله : { رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي } وقوله : { إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين } ونحو ذلك ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الأسماء فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة كما قال أحمد بن حنبل لرجل : ألست مخلوقا ؟ قال : بلى قال : أليس كلامك منك ؟ قال : بلى قال : أليس كلامك مخلوقا ؟ قال : بلى قال : فالله تعالى غير مخلوق وكلامه منه ليس بمخلوق . فقد نص أحمد وغيره على أن **كلام العباد مخلوق** وهم إنما يتكلمون بالأسماء والحروف التي يوجد نظيرها في كلام الله تعالى لكن الله تعالى تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد ؛ فإن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله والصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة والصوت الذي سمعه منه موسى ليس كأصوات شيء من المخلوقات والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين كما أن علم

الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات وهو سبحانه قد علم العباد من علمه ما شاء كما قال تعالى : { ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء } وهم إذا علمهم الله ما علمهم من علمه فنفس علمه الذي اتصف به ليس مخلوقا ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقا فلا يقال : إن ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به وإن كان ما يتصف به العبد مخلوقا . وأصل هذا أن **ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به ويوصف به العباد بما يليق بهم** من ذلك ؛ مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فإن الله له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام . فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه والعبد له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه . فهذه **الصفات لها ثلاث اعتبارات : تارة تعتبر مضافة إلى الرب . وتارة تعتبر مضافة إلى العبد وتارة تعتبر مطلقة** لا تختص بالرب ولا بالعبد . فإذا قال العبد : حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين وإذا قال علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب . وإذا قال العلم والقدرة والكلام فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق فالصفة تتبع الموصوف . فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق . فصفاته مخلوقة . ثم إذا قرأ بأم القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن في نفسه كلام الله غير مخلوق وإن كان حركات العباد وأصواتهم مخلوقة . ولو قال الجنب : { الحمد لله رب العالمين } ينوي به القرآن منع من ذلك وكان قرآنا ولو قاله ينوي به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئا وجاز له ذلك . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " { أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر } رواه مسلم في صحيحه . فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن وقال هي من القرآن فهي من القرآن باعتبار وليست من القرآن باعتبار ولو قال القائل : { يا يحيى خذ الكتاب } ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء وإن قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء . ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب : يا يحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا ؛ لأن لفظ يحيى هنا مراد به ذلك الشخص وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مرادا به ما أراده الله بقوله : { يا يحيى خذ الكتاب } والكلام كلام [المخلوق] بلفظه ومعناه . وقد تنازع الناس في مسمى " الكلام " في الأصل فقيل : هو اسم اللفظ الدال على المعنى وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ وقيل : لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعا يتناولهما عند الإطلاق وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة . هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وإن كان هذا القول لا يعرف في كثير من الكتب . وهذا كما تنازع الناس في مسمى " الإنسان " هل هو الروح فقط أو الجسد فقط ؟ والصحيح أنه اسم للروح والجسد جميعا وإن كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم في مسمى الناطق . فمن سمى شخصا محمدا وإبراهيم وقال : جاء محمد وجاء إبراهيم لم يكن هذا محمدا وإبراهيم

المذكورين في القرآن . ولو قال : محمد رسول الله وإبراهيم خليل الله . يعني به خاتم الرسل وخليل الرحمن لكان قد تكلم بمحمد وإبراهيم اللذين في القرآن لكن قد تكلم بالاسم وألفه كلاما فهو كلامه لم يتكلم به في القرآن العربي الذي تكلم الله به . ومما يوضح ذلك أن الفقهاء قالوا في " آداب الخلاء " أنه لا يستصحب ما فيه ذكر الله واحتجوا بالحديث الذي في السنن " { أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه . وكان خاتمه مكتوبا عليه محمد رسول الله } محمد سطر رسول سطر الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء أن يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء مثل ورق الحساب الذي يكتب فيه أهل الديوان الحساب ومثل الأوراق التي يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ونحو ذلك . وفي السيرة " { أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صالح غطفان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : أهذا شيء أمر الله به فسمعا وطاعة أم شيء تفعله لمصلحتنا ؟ فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده فقال : لقد كنا في الجاهلية وما كانوا يأكلون منها تمرة إلا بقرى أو بشراء فلما أعزنا الله بالإسلام يريدون أن يأكلوا تمرنا لا يأكلون تمرة واحدة وبصق سعد في الصحيفة وقطعها } فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل هذه حروف فلا يجوز إهانتها والبصاق فيها . وأيضا فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو ما فيه كلام الآدميين .

وأما **قول القائل : إن الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة** فإن أراد جنسها فهذا صحيح وإن أراد الحرف المعين فقد أخطأ فإن له مبدأ ومنتهى وهو مسبوق بغيره وما كان كذلك لم يكن إلا محدثا . وأيضا فلفظ الحروف مجمل يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التي هي مباني الكلام ويراد بها الحروف المكتوبة ويراد بها الحروف المتخيلة في النفس والصوت لا يكون كلاما إلا بالحروف باتفاق الناس . وأما الحروف فهل تكون كلاما بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع وقد يراد به نهاية الصوت وحده وقد يراد بالحروف المداد وقد يراد بالحروف شكل المداد فالحروف التي تكلم الله بها غير مخلوقة وإذا كتبت في المصحف قيل كلام الله المكتوب في المصحف غير مخلوق وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق فالمداد مخلوق بمادته وصورته وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله الحروف التي تكلم الله بها فإذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا . وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الأمم . والخط العربي قد قيل إن مبدأه كان من الأنبار ومنها انتقل إلى مكة وغيرها والخط العربي تختلف صورته : العربي القديم فيه تكوف وقد اصطلح المتأخرون على تغيير بعض صوره وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى في نقط الحروف وترتيبها وكلام الله المكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربي هو في نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التي يكتب بها . فإن قيل : فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه في كلام الخالق أو كلام المخلوق ؟ فإن قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق في كلام العباد وإن قلتم مخلوق لزم أن يكون مخلوقا في كلام الله ؟ قيل : قول القائل الحرف من حيث هو هو كقوله الكلام من حيث هو هو والعلم من حيث هو هو والقدرة من حيث هي هي والوجود من

حيث هو هو ونحو ذلك . والجواب عن ذلك أن هذه الأمور وغيرها إذا أخذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة في الخارج عن الأذهان إلا شيء معين فليس ثم وجود إلا وجود الخالق أو وجود المخلوق ووجود كل مخلوق مختص به وإن كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك وليس في الخارج إلا علم الخالق وعلم المخلوق وعلم كل مخلوق مختص به قائم به واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحروف وليس في الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين . وكلام كل مخلوق مختص به واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللفظ . وليس في الخارج إلا الحروف التي تكلم الله بها الموجودة في كلام الخالق والحروف الموجودة في كلام المخلوقين . فإذا قيل : إن علم الرب وقدرته بكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة . وأيضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب وإذا قيل إن الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله : الم - وحم - وطسم - وطس - ويس - وق - ون ونحو ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق وإذا كتب في المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق وإن كان المداد وشكله مخلوقا . و " أيضا " فإذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به وإذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون كلام الله ؛ فإن الكلام كلام من قاله مبتدئا أمرا يأمر به أو خبرا يخبره ليس هو كلام المبلغ له عن غيره ؛ إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين . وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله فيقال هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم وقد يشار إلى نفس صفة العبد كحركته وحياته وقد يشار إليهما فالمشار إليه الأول غير مخلوق والمشار إليه الثاني مخلوق والمشار إليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق وما يوجد في كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبدا . وإذا قال القائل القاف في قوله { وأقم الصلاة لذكري } كالقاف في قوله : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل قيل : ما تكلم الله به وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين ولكن إذا بلغنا كلام الله فإنما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة والمخلوق يماثل المخلوق . وفي هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة فإن الجهمية المعطلة أشباه اليهود والحلولية الممثلة أشباه النصارى دخلوا في هذا وهذا أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التي تختص بالمخلوق : كالفقر والبخل وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال وينزهونه عن الأكفاء والأمثال فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات ؛ فإن المعطل يعبد عدما والممثل يعبد صنما والله تعالى { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } . ومما ينبغي أن يعرف أن كلام المتكلم في نفسه واحد وإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به فإذا أنشد المنشد قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه مع أن أصوات المنشدين له تختلف وتلك الأصوات ليست صوت لبيد وكذلك من روى حديث النبي صلى الله عليه وسلم بلفظه كقوله : " { إنما :

الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى } كان هذا الكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه وإذا قرأه القراء فإنما يقرءونه بأصواتهم . ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون : **من قال اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق** فهو جهمي ومن قال إنه غير مخلوق فهو مبتدع وفي بعض الروايات عنه : من قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القرآن فهو جهمي ؛ لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللافظ وذلك كلام الله لا كلام القارئ فمن قال إنه مخلوق فقد قال إن الله لم يتكلم بهذا القرآن وإن هذا الذي يقرءوه المسلمون ليس هو كلام الله ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .

وأما صوت العبد فهو مخلوق وقد صرح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد ولم يقل أحمد قط : **من قال إن صوتي بالقرآن مخلوق** فهو جهمي وإنما قال من قال لفظي بالقرآن والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير ونفس اللفظ والتلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد ويراد به نفس الكلام الذي يقرؤه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق . وقال أحمد : نقول **القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف** : أي حيث تلي وكتب وقرئ مما هو في نفس الأمر كلام الله فهو كلامه وكلامه غير مخلوق وما كان من صفات العباد وأفعالهم التي يقرءون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ولهذا من لم يهتد إلى هذا الفرق يحار فإنه معلوم أن القرآن واحد ويقرؤه خلق كثير والقرآن لا يكثر في نفسه بكثرة قراءة القراء وإنما يكثر ما يقرءون به القرآن فما يكثر ويحدث في العباد فهو مخلوق والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به وسمعه جبريل من الله وسمعه محمد من جبريل وبلغه محمد إلى الناس وأنذر به الأمم ؛ لقوله تعالى { لأنذركم به ومن بلغ } قرآن واحد وهو كلام الله ليس بمخلوق . وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان كالإنسانية الموجودة في زيد وعمرو ولا من باب ما يقول الإنسان مثل قول غيره كما قال تعالى : { كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم } فإن القرآن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله كما قال تعالى : { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا } فالإنس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارئ على أن يقرأه ويبلغه . فعلم أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل القرآن وأما الحروف الموجودة في القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره وإذا تكلم الله باسم من الأسماء : كآدم ونوح وإبراهيم وتكلم بتلك الحروف والأسماء التي تكلم الله بها فإذا قرئت في كلامه فقد بلغ كلامه فإذا أنشأ الإنسان لنفسه كلاما لم يكن عين ما تكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به

العبد حتى يقال : إن هذه الأسماء والحروف الموجودة في كلام العباد غير مخلوقة ؛ فإن بعض من قال إن الحروف والأسماء غير مخلوقة في كلام العباد ادعى أن المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات وقائل هذا يلزمه أن يكون أيضا النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره في القرآن كقوله : { يا يحيى خذ الكتاب } وإن أراد بذلك شخصا اسمه يحيى وكتابا بحضرته . (فإن قيل يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور في القرآن وإن كان اللفظ نظير اللفظ (قيل كذلك سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها في كلام العباد لا في كلام الله . وقولنا يوجد نظيرها في كلام الله تقريب أي يوجد فيما نقرؤه ونتلوه فإن الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم في القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك في غير القرآن وكلا الصوتين مخلوق . وأما الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين وكلام الله هو كلامه بنظمه ونثره ومعانيه . وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين . فإذا قلنا : { الحمد لله رب العالمين } وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم وأما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير أن نقصد قراءة كلام الله فإنما نقصد ذكرا ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا وننطق بلفظه بألسنتنا وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن وإن كان نظيره في القرآن . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : " { أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر } فجعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن فجعل درجتها دون درجة القرآن وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن . ثم قال : " { هي من القرآن } وكلا قوليه حق وصواب ؛ ولهذا منع أحمد أن يقال : الإيمان مخلوق . وقال لا إله إلا الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوز أن يقال : إنه مخلوق وإن لم يكن من القرآن ولا يقال في التوراة والإنجيل إنهما مخلوقان ولا يقال في الأحاديث الإلهية التي يرويها عن ربه إنها مخلوقة كقوله : " { يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا } فكلام الله قد يكون قرآنا وقد لا يكون قرآنا والصلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق . فإذا فهم هذا في مثل هذا فليفهم في نظائره وأن ما يوجد من الحروف والأسماء في كلام الله ويوجد في غير كلام الله يجوز أن يقال : إنه من كلام الله باعتبار ويقال ليس من كلام الله باعتبار كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق وكلام المخلوقين كله مخلوق . فما كان من كلام الله فهو غير مخلوق وما كان من كلام غيره فهو مخلوق . وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو إثبات القدم بشيء من صفات العباد وأعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه والإيمان به شاركهم في هذا الأصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام الله وصفاته بأن ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد . مثال ذلك : أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرءوه بحركاتهم وأصواتهم فقال الجهمي أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا هو المسمى بكلام الله أو يوجد نظيره في المسمى بكلام الله فيكون كلام الله مخلوقا . وقال الحلولي الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق الذي : نسمعه من القراء هو كلام الله وإنما نسمع أصوات العباد فأصوات العباد بالقرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق

فأصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة ثم قالوا : الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه أو مثل هذه فتكون غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة كما زعم بعضهم أن الأعمال من الإيمان وهو غير مخلوق والأعمال غير مخلوقة . وزاد بعضهم أعمال الخير والشر وقال : هي القدر والشرع المشروع وقال عمر : ما مرادنا بالأعمال الحركات بل الثواب الذي يأتي يوم القيامة كما ورد في الحديث الصحيح : " { أنه تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من الطير صواف } فيقال له : وهذا الثواب مخلوق . وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق وبذلك أجابوا من احتج على **خلق القرآن** بمثل هذا الحديث فقالوا له : الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لا نفس القرآن وثواب القرآن مخلوق إلى أمثال هذه الأقوال التي ابتدعها طوائف والبدع تنشأ شيئا فشيئا وقد بسط الكلام في هذا الباب في مواضع أخر . وقد بينا أن الصواب في هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان وهو ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الإسلام ومن وافق هؤلاء فإن قول الإمام أحمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول ودل عليه الكتاب والسنة ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية وطلب منهم تعطيل الصفات وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة ونحو ذلك ثبت الله الإمام أحمد في تلك المحنة ؛ فدفع حجج المعارضين النفاة وأظهر دلالة الكتاب والسنة وإن السلف كانوا على الإثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ما صار به إماما للمتقين كما قال تعالى : { وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون } ولهذا قيل فيه رحمه الله عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها فلما ظهر به من السنة ما ظهر كان له من الكلام في بيانها وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون إليه . وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة في هذه الأبواب في غير هذا الموضع وبينا أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول وأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ولكن كثيرا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية وليس في المعقول ما يخالف المنقول ؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل قال : معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه أي " معرفته " بالتمييز بين صحيحه وسقيمه . " والفقه فيه " معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الأصولية والفروعية أحب إلي من أن يحفظ من غير معرفة وفقه . وهكذا قال علي بن المديني وغيره من العلماء فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول أو بلفظ ثابت عن الرسول] وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أتي من نفسه . وكذلك " العقليات الصريحة " إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحا لم تكن إلا حقا لا تناقض شيئا مما قاله الرسول والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله وبها يعرف إمكان المعاد . ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحد من الناس بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها قال تعالى : { ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا } وقال : { ولقد

ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل } وقال : { وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون } . وأما الحجج الداحضة التي يحتج بها الملاحدة وحجج الجهمية معطلة الصفات وحجج الدهرية وأمثالها كما يوجد مثل ذلك في كلام المتأخرين الذين يصنفون في الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون أنها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد . وقد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع أخر . وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول وما كان عليه السلف ومعرفة المعقول الصريح ؛ فإن هذا هو الكتاب وهذا هو الميزان وقد قال تعالى : { لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز } وهذه المسألة لا تحتمل البسط على هذه الأمور ؛ إذ كان المقصود هنا التنبيه على أن هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء : وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة فقال هؤلاء : صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة ثم احتاج كل منهما إلى طرد أصله فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد : خرج النفاة إلى أن الله لم يتكلم بالقرآن ولا بشيء من الكتب الإلهية لا التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما وأنه لم يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديما أزليا وأن ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائما بهم حالا فيهم بل يكون ظاهرا عنهم من غير قيام بهم .

ولما تكلموا في " حروف المعجم " صاروا بين قولين : طائفة فرقت بين المتماثلين فقالت الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم فأنكر ذلك عليهم الأكثرون وقالوا هذا مخالفة للحس والعقل فإن حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف وقالوا الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزبيني مصنفا خالف به شيخه القاضي أبا يعلى مع قوله في مصنفه : وينبغي أن يعلم أن ما سطرته في هذه المسألة أن ذلك مما استفدته وتفرع عندي من شيخنا وإمامنا القاضي أبي يعلى بن الفراء وإن كان قد نصر خلاف ما ذكرته في هذا الباب فهو العالم المقتدى به في علمه ودينه فإني ما رأيت أحسن سمتا منه ولا أكثر اجتهادا منه ولا تشاغلا بالعلم مع كثرة العلم والصيانة والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بأيديهم والقناعة في الدنيا باليسير مع حسن التجمل وعظم حشمته عند الخاص والعام ولم يعدل بهذه الأخلاق شيئا من نفر من الدنيا . وذكر القاضي يعقوب في مصنفه أن ما قاله قول أبي بكر أحمد بن المسيب الطبري وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان وأنه سمع الفقيه عبد الوهاب بن حلبة قاضي حران يقول : هو مذهب العلوي الحراني وجماعة من أهل حران . وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جماعة من أهل طبرستان ممن ينتمي إلى مذهبنا : كأبي محمد الكشفل وإسماعيل الكاوذري في خلق من أتباعهم يقولون إنها قديمة قال القاضي أبو يعلى : وكذلك حكي لي عن طائفة بالشام أنها تذهب إلى ذلك منهم النابلسي وغيره وذكر القاضي حسين أن أباه رجع في آخر عمره إلى هذا . وذكروه

عن الشريف أبي علي بن أبي موسى وتبعهم في ذلك الشيخ أبو الفرج المقدسي وابنه عبد الوهاب وسائر أتباعه وأبو الحسن بن الزاغوني وأمثاله . وذكر القاضي يعقوب أن كلام أحمد يحتمل القولين . وهؤلاء تعلقوا بقول أحمد لما قيل له إن سريا السقطي قال : لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أؤمر . فقال أحمد هذا كفر . وهؤلاء تعلقوا من قول أحمد بقوله : كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق وبقوله لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام الناس . وبقول أحمد لأحمد بن الحسن الترمذي : ألست مخلوقا ؟ قال بلى قال أليس كل شيء منك مخلوقا ؟ قال بلى قال فكلامك منك وهو مخلوق . (قلت الذي قاله أحمد في هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضا وليس في كلامه تناقض وهو أنكره على من قال : إن الله خلق الحروف ؛ فإن **من قال إن الحروف مخلوقة** كان مضمون قوله : أن الله لم يتكلم بقرآن عربي وأن القرآن العربي مخلوق ونص أحمد أيضا على أن كلام الآدميين مخلوق ولم يجعل شيئا منه غير مخلوق وكل هذا صحيح والسري رحمه الله إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد فكان مقصودهما بذلك أن الذي لا يعبد الله إلا بأمره هو أكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من الله واستشهدا على ذلك بما بلغهما " { أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أؤمر } وهذا الأثر لا يقوم بمثله حجة في شيء ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة في الخط ليست هي مضطجعة كالباء والتاء فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر . وأحمد أنكر قول القائل إن الله لما خلق الحروف وروي عنه أنه قال : من قال إن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي لأنه سلك طريقا إلى البدعة ومن قال إن ذلك مخلوق فقد قال إن القرآن مخلوق . وأحمد قد صرح هو وغيره من الأئمة أن الله لم يزل متكلما إذا شاء وصرح أن الله يتكلم بمشيئته ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الإسماع ؛ لأنه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته . وصرح أحمد وغيره من السلف أن **القرآن كلام الله غير مخلوق** ولم يقل أحد من السلف إن الله تكلم بغير مشيئته وقدرته ولا قال أحد منهم إن نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين أنه قديم أزلي لم يزل ولا يزال وإن الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال فإن هذا لم يقله ولا دل عليه قول أحمد ولا غيره من أئمة المسلمين بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح في نقيض هذا وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء مع قولهم إن كلام الله غير مخلوق وإنه منه بدأ ؛ ليس بمخلوق ابتدأ من غيره ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة في الكتب الثابتة عنهم مثل ما صنف أبو بكر الخلال في " كتاب السنة " وغيره وما صنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه : كابنيه صالح وعبد الله وحنبل وأبي داود السجستاني صاحب " السنن " والأثرم والمروذي وأبي زرعة وأبي حاتم والبخاري صاحب الصحيح وعثمان بن سعيد الدارمي وإبراهيم الحربي وعبد الوهاب الوراق وعباس بن عبد العظيم العنبري وحرب بن إسماعيل الكرماني ومن لا يحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه وأخباره : كعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبي بكر الخلال وأبي الحسن البناني الأصبهاني وأمثال هؤلاء ومن

كان أيضا يأتم به وبأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع : كأبي عيسى الترمذي صاحب الجامع وأبي عبد الرحمن النسائي وأمثالهما ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله وبسط هذا له موضع آخر . وقد ذكرنا في " المسائل الطبرستانية " و " الكيلانية " بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل . والمقصود هنا أن كثيرا من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة فمنهم من يعظمهم ويقول إنه متبع لهم مع أنه مخالف لهم من حيث لا يشعر ومنهم من يظن أنهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية وذلك لجهله بعلمهم ؛ بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية ؛ فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون في أصل فاسد ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها كما صرحوا في تكلم الله تعالى بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية وما فيهما من حروف الهجاء مؤلفا أو مفردا لما رأوا أن ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين فلم يهتدوا لموضع الجمع والفرق فقال هؤلاء : هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق . وقال هؤلاء : هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق كما ذكر ابن عقيل في " كتاب الإرشاد " عن بعض **القائلين بأن القرآن مخلوق** فقال : شبهة اعترض بها على بعض أئمتهم فقال : أقل ما في القرآن من أمارات الحدث كونه مشبها لكلامنا والقديم لا يشبه المحدث ومعلوم أنه لا يمكن دفع ذلك ؛ لأن قول القائل لغلامه يحيى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة يضاهي قوله سبحانه حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه وإذا اشتبها إلى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده مع أنه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهدا للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والأخبار ولا مانع من ذلك فلما فزعنا نحن وأنتم إلى نفي التشبيه خوفا من جواب دخول القرآن بالحدث علينا كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه حتى إن بعض أصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما إن الكلام واحد والحروف غير مخلوقة فكيف يجوز أن يقال في الشيء الواحد إنه قديم محدث . قلت : وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الأصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزبيني ذكره في مصنفه فقال : (دليل عاشر وهو أن هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التي في كتاب الله تعالى وفي أسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم ؛ وكذلك هاهنا . قال : فإن قيل لا نسلم أن تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها قيل لا نسلم بل لها حرمة . فإن قيل : لو كان لها حرمة لوجب أن تمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها قيل : قد لا تمنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة كبعض آية لا تمنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة وإنما لم تمنع من قراءتها ومسها للحاجة إلى تعليمها كما يقال في الصبي يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه . فإن قيل : فيجب إذا حلف بها حالف أن تنعقد يمينه وإذا خالف يمينه أن يحنث قيل له : كما في حروف القرآن مثله نقول هنا . فإن قيل : أليس إذا وافقها في هذه المعاني دل على أنها هي ألا ترى أنه إذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي فوافق صفتها صفة ما في كتاب الله تعالى مثل قوله يا داود يا نوح يا يحيى وغير ذلك ؛ فإنه موافق لهذه الأسماء التي في كتاب الله وإن كانت في كتاب الله قديمة وفي خطاب الآدمي

محدثة ؟ . قيل : كل ما كان موافقا لكتاب الله من الكلام في لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وإن قصد به خطاب آدمي . فإن قيل : فيجب إذا أراد بهذه الأسماء آدميا وهو في الصلاة أن لا تبطل صلاته . قيل له : كذلك نقول وقد ورد مثل ذلك عن علي وغيره ؛ إذ ناداه رجل من الخوارج : { لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } قال : فأجابه علي وهو في الصلاة : { فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون } . وعن ابن مسعود أنه استأذن عليه بعض أصحابه فقال : { ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين } . قال : فإن قيل : أليس إذا قال : { يا يحيى خذ الكتاب بقوة } ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقا ؟ وإن نوى به القرآن يكون قديما قيل له : في كلا الحالين يكون قديما ؛ لأن القديم عبارة عما كان موجودا فيما لم يزل والمحدث عبارة عما حدث بعد أن لم يكن والنية لا تجعل المحدث قديما ولا القديم محدثا قال : ومن قال هذا فقد بالغ في الجهل والخطأ . وقال أيضا : كل شيء يشبه بشيء ما فإنما يشبهه في بعض الأشياء دون بعض ولا يشبهه من جميع أحواله ؛ لأنه إذا كان مثله في جميع أحواله كان هو لا غيره وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها ا هـ . (قلت : هذا كلام القاضي يعقوب وأمثاله مع أنه أجل من تكلم في هذه المسألة ولما كان جوابه مشتملا على ما يخالف النص والإجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به . وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا بأن قال : الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث كما أن كونه عالما هو تبينه للشيء على أصلكم ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يتبينه الواحد منا وليس مماثلا لنا في كوننا عالمين . وكذلك كونه قادرا هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى وليست قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها فليس الاشتراك في الحقيقة حاصلا والافتراق في القدم والحدوث حاصل . قال : " وجواب آخر " لا نقول إن الله يتكلم بكلامه على الوجه الذي يتكلم به زيد بمعنى أنه يقول : يا يحيى فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله خذ الكتاب بقوة وترتب في الوجود كذلك بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا . فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل يا يحيى خذ الكتاب يعود إلى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث فأما أنه يشابه الكلام القائم بذاته فلا . قال ابن عقيل : قالوا فهذا لا يجيء على مذهبكم ؛ فإن عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء . قيل : ليس معنى قولنا هي المتلو أنها هذه الأصوات المقطعة وإنما نريد به ما يظهر من الحروف القديمة في الأصوات المحدثة وظهورها في المحدث لا بد أن يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الأنفاس وإدارة اللهوات ؛ لأن الآلة التي تظهر عليها لا تحمل الكلام إلا على وجه التقطيع وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع والابتداء والانتهاء والتكرار والبعدية والقبلية . ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قدم الأعراض وتقطع القديم وتقطع القديم عرض لا يقوم بقديم ومن اعتقد أن كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالي من القطع والوصل والتقريب والتبعيد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه . ولهذا روي في الخبر " { أن موسى سأله بنو إسرائيل كيف سمعت كلام ربك ؟ قال كالرعد الذي لا يترجع } يعني ينقطع لعدم قطع الأنفاس وعدم الأنفاس والآلات والشفاه واللهوات ومن قال غير ذلك وتوهم أن الله تكلم على لسان التالي أو الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل

والتقريب والتبعيد : فقد حكم به محدثا ؛ لأن الدلالة على حدوث العالم هو الاجتماع والافتراق ؛ ولأن هذه من صفاف الأدوات ا هـ . (قلت فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزبيني فإن ذلك مخالف للنص والإجماع والعقل مخالفة ظاهرة فإنه قد ثبت بالنص والإجماع أن من **تكلم في الصلاة بكلام الآدميين عامدا لغير مصلحتها** عالما بالتحريم بطلت صلاته بالإجماع خلاف ما ذكره القاضي يعقوب ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالإجماع وإن قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع وظاهر مذهب أحمد لا تبطل كمذهب الشافعي وغيره وقيل تبطل كقول أبي حنيفة وغيره . وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم ؛ فإن قول علي بن أبي طالب : { فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون } هو كلام الله ولم يقصد علي أن يقول للخارجي : ولا يستخفنك الخوارج ؛ وإنما قصد أن يسمعه الآية وأنه عامل بها صابر لا يستخفه الذين لا يوقنون وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة : { ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين } . ومعلوم أن مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة . وابن مسعود إنما كان بالكوفة ؛ فعلم أنه قصد تلاوة الآية وقصد مع ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول ؛ فإنهم سمعوا قوله ادخلوا فعلموا أنه أذن لهم في الدخول وإن كان هو تلا الآية فهذا هذا . وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري وغيره وهو أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته ؛ لامتناع قيام الأمور الاختيارية به عندهم ؛ لأنها حادثة والله لا يقوم به حادث عندهم ؛ ولهذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الأصل كقوله تعالى : { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون } فإن هذا يقتضي أنه سيرى الأعمال في المستقبل وكذلك قوله : { ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون } وقوله : { وسيرى الله عملكم ورسوله } وكذلك قوله : { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله } فإن هذا يقتضي أنه يحبهم بعد اتباع الرسول . وكذلك قوله تعالى { ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم } فإن هذا يقتضي أنه قال لهم بعد خلق آدم وكذلك قوله تعالى { فلما أتاها نودي } يقتضي أنه نودي لما أتاها لم يناد قبل ذلك وكذلك قوله : { إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون } ومثل هذا في القرآن كثير . وهذا الأصل هو مما أنكره الإمام أحمد على ابن كلاب وأصحابه حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية وقال : احذروا من حارث الآفة كلها من حارث فمات الحارث وما صلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الإمام أحمد عنه مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل وقد قيل إن الحارث رجع عن ذلك وأقر بأن الله يتكلم بصوت كما حكى عنه ذلك صاحب " التعرف لمذهب التصوف " أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي . وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع أخر . واختلف كلام ابن عقيل في هذا الأصل فتارة يقول بقول ابن كلاب وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث أن الله تقوم به الأمور الاختيارية ويقول إنه قام به أبصار متجددة حين تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولا أنه سيوجد كما دل على ذلك عدة آيات في القرآن كقوله تعالى : {

لنعلم من يتبع الرسول } وغير ذلك . وكلامه في هذا الأصل وغيره يختلف تارة يقول بهذا وتارة يقول بهذا فإن هذه المواضع مواضع مشكلة كثر فيها غلط الناس ؛ لما فيها من الاشتباه والالتباس . والجواب الحق : أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين كما لا يماثل في شيء من صفاته صفات المخلوقين وقول القائل : إن الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث لفظ مجمل فإنا إذا قلنا : لله علم ولنا علم أو له قدرة ولنا قدرة أو له كلام ولنا كلام أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت وقلنا صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا في الحقيقة - فإن أريد بذلك أن حقيقتهما واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع وإن أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه في الحقيقة وإنما اختلفتا في الصفات العرضية كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام - وقد بين فساد ذلك في الكلام على " الأربعين " للرازي وغير ذلك - فهذا أيضا من أبطل الباطل وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين . وإن أريد بذلك أنهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح كما أنه إذا قيل : إنه موجود أو إن له ذاتا فقد اشتركا في مسمى الوجود والذات لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كليا إلا في الأذهان لا في الأعيان فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الأجزاء في الكل فإنه يجب الفرق بين قسمة الكلي إلى جزئياته كقسمة الحيوان إلى ناطق وغير ناطق وقسمة الإنسان إلى مسلم وكافر وقسمة الاسم إلى معرب ومبني وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ففي الأول إنما اشتركت الأقسام في أمر كلي فضلا عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين في شيء موجود في الخارج وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة ؛ لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق وإذا كان المخلوق مخالفا بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ولقدرته حقيقة القدرة ولكلامه حقيقة الكلام كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ولوجوده حقيقة الوجود وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه . فهذا هو المراد بقولنا : علمه يشارك علم المخلوق في الحقيقة فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابها ولا مماثلا لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين فهذا في نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن والقرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئا من أصوات العباد . ثم إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغا عنه لا مسموعا منه وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا الكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل قال الله تعالى : { وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه } وقال النبي صلى الله عليه وسلم " { زينوا القرآن بأصواتكم } وقال الإمام أحمد في قول النبي صلى الله عليه وسلم " { ليس منا من لم يتغن بالقرآن } قال يزينه ويحسنه بصوته كما قال : " { زينوا القرآن

بأصواتكم } فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة إنا نقرأ القرآن بأصواتنا والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد صلى الله عليه وسلم وسمعه محمد منه وبلغه محمد إلى الخلق والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض ويسمعه بعضهم من بعض ومعلوم أنهم إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فبلغوه عنه كما قال : " { نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه } فهم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التي تكلم بها وبلغوا لفظه بأصوات أنفسهم وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعنى لا باللفظ واللفظ المبلغ هو لفظ الرسول وهو كلام الرسول ؛ فإن كان صوت المبلغ ليس صوت الرسول وليس ما قام بالرسول من الصفات والإعراض فارقته وما قامت بغيره ؛ بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله . وإذا كان هذا معقولا في صفات المخلوقين فصفات الخالق أولى بكل صفة كمال وأبعد عن كل صفة نقص والتباين الذي بين صفة الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذي بين صفة مخلوق ومخلوق وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته في المخلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق وهذه جمل قد بسطت في مواضع أخر . هذا مع أن احتجاج الجهمية والمعتزلة بأن كلام المخلوق بقوله : { يا يحيى خذ الكتاب بقوة } مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم فإن الذين يقولون هو مخلوق يقولون إنه خلقه في بعض الأجسام إما الهواء أو غيره كما يقولون : إنه خلق الكلام في نفس الشجرة فسمعه موسى . ومعلوم أن تلك الحروف والأصوات التي خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم ؛ كما أن أهل السنة يقولون الذي تكلم هو الله بمشيئته وليس ذلك مماثلا لصوت العبد .

وأما القائلون بقدم الكلام المعين سواء كان معنى أو حروفا أو أصواتا فيقولون : خلق لموسى إدراكا أدرك به ذلك القديم وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه [غير ما قام بنفس المتكلم المنشئ] فكيف [لا] يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟ . فيجب على الإنسان في " مسألة الكلام " أن يتحرى أصلين : (أحدهما **تكلم الله بالقرآن وغيره هل تكلم به بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه في غيره** ؟ (والثاني تبليغ ذلك الكلام عن الله وأنه ليس مما يتصف به الثاني وإن كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ . وبسط هذا له موضع آخر . وأيضا فهذان المتنازعان إذا قال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث وقال الآخر : إنها ليست بكلام الله وإنها مخلوقة بشكلها ونقطها قد يفهم من هذا أنهما أرادا بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة والحروف المكتوبة قد تنازع الناس في شكلها ونقطها فإن الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة ؛ لأنهم إنما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدورهم لا على المصاحف وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة فإن المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغير والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه لم ينزله مكتوبا كالتوراة وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب كما قال تعالى : { وقال الذين كفروا لولا نزل عليه

القرآن جملة واحدة } الآية وقال تعالى : { وقرآنا فرقناه } الآية وقال تعالى : { ولا تعجل بالقرآن } الآية وقال تعالى : { إن علينا جمعه وقرآنه } الآية .
وفي الصحيح عن ابن عباس قال : { كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما فحرك شفتيه فأنزل الله تعالى : { لا تحرك به لسانك لتعجل به } { إن علينا جمعه وقرآنه } } قال جمعه في صدرك ثم تقرؤه : { فإذا قرأناه فاتبع قرآنه } قال : فاستمع له وأنصت { ثم إن علينا بيانه } أي نبينه بلسانك . فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ فلهذا لم تكن الصحابة ينقطون المصاحف ويشكلونها وأيضا كانوا عربا لا يلحنون ؛ فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل : يعملون وتعملون . فلم يقيدوه بأحدهما ليمنعوه من الأخرى . ثم إنه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها وكانوا يعملون ذلك بالحمرة ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف والكسرة بنقطة حمراء تحته والضمة بنقطة حمراء أمامه . ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك " شد " ؛ ويعملون المدة بقولك " مد " وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين ؛ لأن الهمزة أخت العين ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان ألفاظ العدد وغير ذلك وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل " أنا " وعلى شكل " ثنا " . وتنازع العلماء **هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها** ؟ على قولين معروفين وهما روايتان عن الإمام أحمد لكن لا نزاع بينهم أن المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط كما يجب احترام الحرف ولا تنازع بينهم أن مداد النقطة والشكل مخلوق كما أن مداد الحرف مخلوق ولا نزاع بينهم أن الشكل يدل على الإعراب والنقط يدل على الحروف وأن الإعراب من تمام الكلام العربي ويروى عن أبي بكر وعمر أنهما قالا : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب أن النقطة والشكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما ولا ريب أن إعراب القرآن العربي من تمامه ويجب الاعتناء بإعرابه والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق كذلك يبين الشكل المكتوب للإعراب المنطوق . فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصورا تاما ظهر لهم الصواب وقلت الأهواء والعصبيات وعرفوا موارد النزاع فمن تبين له الحق في شيء من ذلك اتبعه ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة { أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم } . وقول القائل الآخر كلامه كتب بها : يقتضي أنه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " { من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف } قال الترمذي : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بالحرف نفس المداد

وشكل المداد وإنما أراد الحرف المنطوق . وفي مراده بالحرف قولان : قيل هذا اللفظ المفرد . وقيل أراد صلى الله عليه وسلم بالحرف الاسم كما قال : ألف حرف ولام حرف وميم حرف .

ولفظ " **الحرف والكلمة** " له في لغة العرب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بها معنى وله في اصطلاح النحاة معنى . فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة الجملة الاسمية أو الفعلية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته : " { كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم } وقال صلى الله عليه وسلم " { إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل } وقال : " { إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة } وقال لأم المؤمنين " { لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضا نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته } ومنه قوله تعالى { كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا } وقوله : { وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها } وقوله تعالى { يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله } وقوله : { وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون } وقوله : { وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا } وقول النبي صلى الله عليه وسلم " { من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله } ونظائره كثيرة . ولا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة . فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك ؛ بل يظنون أن اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب والفاضل منهم يقول : وكلمة بها كلام قد يؤم ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد وهذا غلط لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة . ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على أن القديم هو ما لا أول لوجوده أو ما لم يسبقه عدم ثم يقول بعضهم : وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره سواء كان أزليا أو لم يكن كما قال تعالى : { حتى عاد كالعرجون القديم } وقال : { وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم } وقوله تعالى { قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم } وقال : { أفرأيتم ما كنتم تعبدون } { أنتم وآباؤكم الأقدمون } وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحي ولا ريب أنه أولى بالقدم في لغة الرب ؛ ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بإزاء القديم قال تعالى : { ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث } وهذا يقتضي أن الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم . وهذا موافق للغة العرب التي نزل بها القرآن ونظير هذا لفظ " القضاء " فإنه في كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك في وقتها كما قال تعالى : { فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله } وقوله : { فإذا قضيتم مناسككم } ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ " القضاء " مختصا بفعلها في غير وقتها ولفظ " الأداء " مختصا بما يفعل في الوقت وهذا التفريق لا يعرف قط في كلام الرسول ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء في الأداء فيجعلون اللغة

التي نزل القرآن بها من النادر . ولهذا يتنازعون في مراد النبي صلى الله عليه وسلم " { فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا } " وفي لفظ : " { فأتموا } " فيظنون أن بين اللفظين خلافا وليس الأمر كذلك ؛ بل قوله : " فاقضوا " كقوله : " فأتموا " لم يرد بأحدهما الفعل بعد الوقت ؛ بل لا يوجد في كلام الشارع أمر بالعبادة في غير وقتها لكن الوقت وقتان : وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار : كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر فإنما صليا في الوقت الذي أمر الله به فإن هذا ليس وقتا في حق غيرهما . ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها . **وما ذكر في مسمى " الكلام "** ما ذكره سيبويه في كتابه عن العرب فقال : واعلم " أن " في كلام العرب إنما وقعت على أن تحكى وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما قولا ؛ وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة إلا للجملة التامة في كلام العرب ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعاني واسم حروف الهجاء ؛ ولهذا سأل الخليل أصحابه : كيف تنطقون بالزاي من زيد ؟ فقالوا : زاي فقال نطقتم بالاسم وإنما الحرف زه ؛ فبين الخليل أن هذه التي تسمى حروف الهجاء هي أسماء . وكثيرا ما يوجد في كلام المتقدمين هذا " حرف من الغريب " يعبرون بذلك عن الاسم التام فقوله صلى الله عليه وسلم " { فله بكل حرف } " مثله بقوله : " ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف " . وعلى نهج ذلك : وذلك حرف والكتاب حرف ونحو ذلك . وقد قيل : إن ذلك أحرف والكتاب أحرف وروي ذلك مفسرا في بعض الطرق . والنحاة اصطلحوا اصطلاحا خاصا فجعلوا لفظ " الكلمة " يراد به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعاني ؛ لأن سيبويه قال في أول كتابه : الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . فجعل هذا حرفا خاصا وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب وقد عرف أنهم يسمون الاسم أو الفعل حرفا فقيد كلامه بأن قال : وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى أجزائه لا قسمة الكلي إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بأن القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء كذلك الكلام هو مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني فهو مقسوم إليها وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس إلى أنواعه كما يقال : الاسم ينقسم إلى معرب ومبني . وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة في هذا ولم يفهموا كلامهم فقالوا : كل جنس قسم إلى أنواعه أو أشخاص أنواعه فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص وإلا فليست أقساما له وأرادوا بذلك الاعتراض على قول الزجاج : الكلام اسم وفعل وحرف . والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما يقسم العقار والمال ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات - التي لا توجد كليات إلا في الذهن - كقسمة الحيوان إلى ناطق وبهيم وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني . فإن المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لا يكون كليا إلا في الذهن .
فصل **ولفظ " الحرف " يراد به حروف المعاني التي هي قسيمة الأسماء والأفعال** : مثل حروف الجر والجزم وحرفي التنفيس والحروف

المشبهة للأفعال مثل " إن وأخواتها " وهذه الحروف لها أقسام معروفة في كتب العربية كما يقسمونها بحسب الإعراب إلى ما يختص بالأسماء وإلى ما يختص بالأفعال ويقولون : ما اختص بأحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملا كما تعمل حروف الجر وإن وأخواتها في الأسماء وكما تعمل النواصب والجوازم في الأفعال ؛ بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس : كالسين وسوف فإنهما لا يعملان لأنهما كالجزء من الكلمة ويقولون : كان **القياس في " ما " أنها لا تعمل** لأنها تدخل على الجملة الاسمية والفعلية ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن في قوله : { ما هذا بشرا } { ما هن أمهاتهم } . ويقسمون " **الحروف " باعتبار معانيها** إلى حروف استفهام وحروف نفي وحروف تخصيص وغير ذلك ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي . فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة إلى عرف النحاة بالتخصيص وإلا فلفظ الحرف في اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال وحروف الهجاء تسمى حروفا وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة . وتقسم تقسيما آخر إلى حروف حلقية وشفهية والمذكورة في أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف واشتملت من كل صنف على أشرف نصفيه : على نصف الحلقية والشفهية والمطبقة ؛ والمصمتة وغير ذلك من أجناس الحروف . فإن لفظ " الحرف " أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال : حروف الرغيف وحرف الجبل . قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ومنه قوله تعالى { ومن الناس من يعبد الله على حرف } إلى قوله : { والآخرة } فإن طرف الشيء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقرا ؛ فلهذا كان من عبد الله على السراء دون الضراء عابدا له على حرف : تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل فسميت حروف الكلام حروفا لأنها طرف الكلام وحده ومنتهاه إذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه ؛ ولهذا قال تعالى : { ألم نجعل له عينين } { ولسانا وشفتين } فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا . ثم إذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حروفا فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكل أمة شكل مخصوص هي خطوطهم التي يكتبون بها كلامهم ويراد به المادة ويراد به مجموعها وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت بأسمائها ؛ إذ كان الإنسان يكتب اللفظ بقلمه ؛ ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه { اقرأ باسم ربك الذي خلق } إلى قوله : { ما لم يعلم } فبين سبحانه في أول ما أنزله أنه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى كما قال موسى : { ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى } فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الإنسان فقال : { خلق الإنسان من علق } . ثم ذكر أنه علم ؛ فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات . والعلم له " ثلاث مراتب " علم بالجنان وعبارة باللسان وخط بالبنان ؛ ولهذا قيل : إن لكل شيء أربع وجودات : وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي . وجود في الأعيان ووجود في الأذهان واللسان والبنان ؛ لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء وأما الذهني الجناني فهو العلم بها الذي في القلوب والعبارة عن ذلك هو اللساني وكتابة ذلك هو الرسمي البناني وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ وذلك يستلزم

تعليم العلم فقال : { علم بالقلم } لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث وأطلق التعليم ثم خص فقال : { علم الإنسان ما لم يعلم } . وقد تنازع الناس في وجود كل شيء هل هو عين ماهيته أم لا ؟ وقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع وبين أن الصواب من ذلك أنه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الأعيان وبالماهية ما يتصور في الأذهان فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت في الأعيان ليس هو ماهيتها المتصورة في الأذهان ؛ لكن الله خلق الموجود الثابت في الأعيان وعلم الماهيات المتصورة في الأذهان كما أنزل بيان ذلك في أول سورة أنزلها من القرآن وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما : ما هو متحقق في الأعيان وما هو متحقق في الأذهان فإذا أريد بهذا وهذا ما هو متحقق في الأعيان أو ما هو متصور في الأذهان فليس هما في الأعيان اثنان ؛ بل هذا هو هذا . وكذلك الذهن إذا تصور شيئا فتلك الصورة هي المثال الذي تصورها وذلك هو وجودها الذهني الذي تتصوره الأذهان ؛ فهذا فصل الخطاب في هذا الباب . ومن تدبر هذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء { ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور } . وقد بسط الكلام على أصول هذه المسائل وتفاصيلها في مواضع أخرى ؛ فإن الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيل : " مسألة الكلام " حيرت عقول الأنام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير فإنهما سألا بحسب ما سمعاه واعتقداه وتصوراه فإذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها وما فيها من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة تبين له أن من الخلق من تكلم في مثل هذه الأسماء بالنفي والإثبات من غير تفصيل فلا بد له أن يقابله آخر بمثل إطلاقه . ومن الأصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ " نوعان " : نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك فيثبت ما أثبته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله فاللفظ الذي أثبته الله أو نفاه حق ؛ فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل والألفاظ الشرعية لها حرمة . ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر ونطيعه في كل ما أوجب وأمر ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان وقد قال تعالى : { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات } . وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره . ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ؛ فإن كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلا عن أن يعرف دليله ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئا بل يكون في قوله نوع من الصواب وقد يكون هذا مصيبا من وجه وهذا مصيبا من وجه وقد يكون الصواب في قول ثالث . وكثير من الكتب المصنفة في " أصول علوم الدين " وغيرها تجد الرجل المصنف فيها في " المسألة العظيمة " كمسألة القرآن والرؤية والصفات والمعاد وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالا متعددة . والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس في تلك الكتب ؛ بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به

وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة وهو مما نهيت الأمة عنه كما في قوله تعالى { ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم } { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } . قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة . وقد قال تعالى : { إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله } وقال تعالى : { وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد } . وقد { خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتنازعون في القدر وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ فقال : أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه } . ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ويؤمنوا بمتشابهه . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد كتبت في أصول هذه المسائل قواعد متعددة وأصولا كثيرة ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز في قعدة واحدة والله تعالى يهدينا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه . والحمد لله رب العالمين .